



البيان من النسق الأصولي إلى النسق البلاغي

The Statement from the Fundamentalist Format to the Rhetorical One

بلفضل فاطمة¹، زروقي عبد القادر²، عثمان عمار³

مخبر الخطاب الحجاجي أصوله ومرجعياته وأفاقه في الجزائر

¹ جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)، fatima.belfeddal@univ-tiaret.dz

² جامعة ابن خلدون - تيارت (الجزائر)، zerroukikader@gmail.com

³ جامعة أحمد زبانة - غليزان (الجزائر)، amar.othmani@univ-relizane.dz

ملخص:

ترمي هاته الدراسة البحث عن التعامل المنهجي بين مباحث علوم اللغة العربية ومباحث علوم الشريعة للوقوف على النسق المعرفي الجامع بينهما، ولما كان البيان المثبت الأول لكل هاته العلوم باعتباره منظومة معرفية في الدرس البلاغي وقبلها الدرس الأصولي الذي صاغ المفهوم، حق لنا أن ننطلق منه لذا كانت البداية مع الإمام الشافعي وأهمية البيان في الدرس الأصولي والأثر الذي أداه في البلاغة العربية، لننتقل بعده إلى ما تم توضيحه حول مفهوم البيان في الدراسة البلاغية ممثلة في الجاحظ.

كلمات مفتاحية: البلاغة، البيان، النسق، أصول الفقه، الشافعي، الجاحظ.

Summary:

This study aims to explore the methodological interaction between the fields of Arabic linguistic sciences and the sciences of Sharia (Islamic law) to identify the common cognitive system between them. Since "البيان" (the statement) is the foundational element of all these sciences, being a knowledge system in rhetorical studies and, prior to that, in the foundational studies that shaped the concept, it is justified to start from this point. Thus, the beginning is with Imam al-Shafi'i and the significance of the statement in foundational studies, as well as its impact on Arabic rhetoric. We

will then move on to clarify the concept of البيان in rhetorical studies as represented by Al-Jahiz.

Keywords: Rhetoric, statement, system, principles of jurisprudence, al-Shafi'i, Al-Jahiz

1. مقدمة:

نشأت العلوم العربية سواء الشرعية منها أو اللغوية، مرتبطة بالقرآن الكريم بهدف تحقيق مقاصد البيان في الكتاب والسنة النبوية. وذلك ما يعكس النسق الواحد لهذه العلوم تبعا لوحدة الأصل والمصدر. مما يفسر نظامها وتكاملها المنهجي؛ تحقيقا لمقصد الغاية ذاتها، فلم تكن مهمة أصول الفقه إلا الكشف من النص القرآني والحديث النبوي الشريف عن القواعد الكلية التي تستنبط بها الأحكام الشرعية، وإلى جانب ذلك تعدد المباحث اللغوية في الدرس الأصولي، ولعل أهمها كان مبحث البيان. لذلك كان لازما على الدارس النظر في اللغة التي نزل بها هذا النص القرآني لفهم مقاصده.

ومن ثمة كان البيان القرآني المنبث الأول لكل العلوم التي كانت منذ بدايتها متصلة ومتسقة في ضفيرة واحدة. وعليه ستقوم هذه الدراسة على البحث عن التكامل المنهجي بين مباحث علوم اللغة؛ لإيجاد نسق معرفي واحد. ولما كان مفهوم البيان أول التواليف في تلك الضفيرة. حُقِّ لنا أن ننطلق منه. والبداية ستكون مع صاحب السبق في وضع اللبانات الأولى لنظرية البيان العربي، وهو "الإمام الشافعي" رحمه الله. فضلا عما أحدثه من أثر كبير على الأصوليين وما أنتجوه في الدرس البلاغي؛ حيث نجد المباحث البلاغية ماثورة في دراساتهم؛ كالخبر، والإنشاء، والحقيقة، والمجاز، وغيرها. وسنقف بعد ذلك على دلالة مفهوم البيان في الدراسة البيانية ممثلة في الجاحظ باعتباره مؤسس علم البيان العربي. من خلال المنهج الذي اتبعه في كتابيه "البيان والتبيين" و"الحيوان" ودعوته إلى النهج البياني، مما يجعل نسق الجاحظ بداية تحول البيان العربي من السياق الديني إلى دائرة الأدب بكل أصنافه وفنونه.

وعلى هذا الأساس سنحاول معالجة الموضوع، انطلاقا من إشكالية محددة، مفادها: ماهي دلالة مفهوم البيان باعتباره منظومة معرفية في الدرس البلاغي، وقبلها في الدرس الأصولي الذي صاغ المفهوم؟، وماهي مظان الالتقاء بين الدرسين البلاغي والأصولي مُمَثِّلين في الجاحظ والشافعي؟.

لمحاولة الإجابة عن هذه الإشكالية، ستنظم دراستنا في ثلاثة مباحث؛ سيتناول أولها نشأة البيان عند المتكلمين بإبراز الدعائم الأولى التي قام عليها بفضل رسالة "بشر بن المعتمر"

الذي رسم الطريق لمن جاء بعده. وفي المبحث الثاني سنتطرق إلى مفهوم البيان عند الأصوليين من خلال الإمام الشافعي، وسنبرز من خلاله القواعد الكلية التي تعد أساس النظرية البانية. أما المبحث الثالث فخصصناه لمفهوم البيان عند الجاحظ، وللمنطلقات الفلسفية والعقائدية التي ساهمت في بلورة هذا المفهوم عنده، وكذا الأنساق المعرفية لنظرية البيان الجاحظية. وسنختم الدراسة بخلاصة تركيبية توضح مدى التكامل المنهجي بين الدرس الأصولي والدرس البلاغي. بوصفهما خطابا بيانيا يشكل نسقا معرفيا واحدا. كما سنخلص إلى بيان الحد الذي يمكننا من الكلام عن قراءة نسقية للبيان العربي عند كل من الشافعي، والجاحظ.

2. العرض

1.2 البيان العربي عند المتكلمين:

شُغِلَ النحاة واللغويون بمسائل البيان والبلاغة. التي أنتجت الحقل المعرفي العربي الذي تمخضت عنه علوم عربية خالصة؛ من نحو، وفقه، وبلاغة، وبيان، وهلم جرا. وإلى جانب علماء النحو واللغة والبلاغة. كان لعلماء الكلام إسهام في بلورة هذا الحقل المعرفي، وعلى رأسهم المعتزلة الذين كانوا مهيبين تاريخيا لدراسة النص القرآني، دراسة تقوم على الحجة والدليل، فاستفاد البيان العربي من ذلك استفادة كبرى. حيث كانت بيئة المعتزلة خاصة، والمتكلمين عامة، إحدى البيئات الرئيسية التي نشأ في ظلها التفكير البلاغي¹. ففي أحضانهم نشأ علم البيان، وبأيديهم وضعت الأسس والقواعد الأولى له، ومما ساعدهم على ذلك ثقافتهم في الفلسفة والمنطق والكلام، فقد قاموا بتنظيم أبحاث هذا الفن والغوص في وسائله وربطه بنفسية المتكلم والمخاطب معا، ومراعاة ما يقتضيه كل حال من المقال².

وقد أجمع كثير من الدارسين أن خير ما أُنْثَرَ عن المعتزلة في فن البلاغة والبيان العربي. صحيفة بشر بن المعتمر المتوفي سنة 210 هـ والتي أوردها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين كاملة غير منقوصة؛ وذلك لاهتمامه الشديد بها³ "ولأول مرة نجد متكلمًا كبشر بن المعتمر. يفصل القول في البيان وطرائقه تفصيلا بالغا، ويرسم الطريقة للمتكلم في صحيفته المشهورة

4"...

وما يُحَسَّبُ لهذه الصحيفة أنها نهج جديد اتسم بالعمق والجدة، وكشف عن مكنونات النفس، ووصف طريقة البيان، وأحوال الخطاب، ولأهم بين اللفظ والمعنى، وتوافق الألفاظ،

وكيفية مخاطبة العامة بمعاني الخاصة والعكس، وهذا أول كلام في رعاية مقتضى ومراعاة المقام.

لتمكن هذه الرسالة، على الرغم من إيجازها، من وضع الدعائم الأولى التي سيقوم عليها علم البيان العربي فيما بعد. فكانت بمثابة الدستور الأول لأصول البلاغة العربية التي استعان بها بعد ذلك الجاحظ، وتطبيقها على كل أساليب العربية بعد توضيح وشرح دقيق لنصها⁵.

ولا يمكننا هنا التفصيل في كل ما جاء في الصحيفة؛ لأن ذلك سيطول، وإنما تمت الإشارة إليها لأنها باكورة درس البلاغي والنقدي. والتي تناولها الدراسون حتى بعد الجاحظ بالدرس والتحليل؛ لما حملته من شروط للفصاحة ومطابقة الكلام لما يقتضيه الخطاب، وغيرها من المسائل البلاغية والنقدية المهمة.

2.2. مفهوم البيان عند الشافعي ونسقه المعرفي:

جاء علم أصول الفقه خادماً لبيان القرآن الكريم، وضابطاً لأحكامه وفهم معانيه مقاصده. كما أن البلاغة العربية قامت على الدراسة اللغوية لهذا النص. سواء في علم البيان أو علم المعاني، وبدأت كاتجاه مبكر في علم أصول الفقه الذي أولى الأهمية لضبط العلاقة بين اللفظ والمعنى. وجعلها مدخلاً لدراسة النص القرآني، ونص الحديث النبوي. وظلت البحوث اللغوية واحدة من أبرز السلطات المرجعية في علم الفقه، وهو الذي دفع أحد الفقهاء للقول أنه ظل يفتي الناس في شؤون دينهم لمدة ثلاثين عاماً معتمداً على كتاب سيبويه في نحو اللغة العربية⁶.

وتطورت بعدها الأبحاث البيانية، وكل المعطيات التاريخية تثبت أن دراسة البيان إنما تم تدشينه بصورة منظمة في اللغة النحو والكلام. وبعبارة أدق في الأبحاث والمناقشات التي ستسمى فيما بعد بهذه الأسماء. التي كان يستقطبها الدرس الإعجازي في المقام الأول، وبعدها الدراسات البلاغية للشعر الجاهلي. وتطورت بعدها الأبحاث البيانية بعد عصر التدوين لتشمل الخطاب العربي ككل؛ من شعر، وخطابة، وفنون القول كلها. واتجهت الدراسات بصورة أوضح للتقعيد والضبط والتقنين نتيجة للمجاذلات المذهبية داخل الدائرة البيانية نفسها⁷.

ولعل النقلة التي وقعت من الاهتمام بالدرس الإعجازي إلى بلاغة النص الشعري. مرت بالجسر اللغوي نفسه، وهذا ما سنلاحظه مع فضل الدرس اللغوي والنحوي على نظرية البيان عند الشافعي.

1.2.2. فضل علماء النحو واللغة في بيان الشافعي:

وضع الخليل أوزانه وأسس لعلم العروض. قانونا للشعر العربي، وجمع اللغة على أساس نسقي، وقد عاصره الشافعي في شبابه، واستوحى مشروعه من عمل الخليل وسيبويه، فتأثير منهج هؤلاء في رسالة الشافعي لا يمكن تجاهله شكلا ومضمونا. وبعد تقنين البيان العربي ألفاظا وأوزانا من قبل الخليل، قننه سيبويه إعرابا وتصريفا، وجاء الشافعي ليقتننه على مستوى المبنى من جهة النحو، وعلى مستوى المبنى من جهة معاجم اللغة. كما استفاد الشافعي من الطب والتنجيم. اللذين يقال أنه كان على معرفة بهما في ميله إلى فرض النظام في كل شيء، فعمل على تحديد الأصول وتقنين الرأي، فأنشأ علم أصول الفقه، وهو يدين بالشيء الكثير لعلماء اللغة والنحو الذين احتك بهم، وناظرهم أيام شبابه، وكهولته، وكان شاهدا على إحكام النسق اللغوي على أيدي الخليل وسيبويه.⁸

2.2.2. مفهوم البيان عند الشافعي:

يُعَدُّ الشافعي واضع اللبنة الأولى لعلم البيان، حيث تناول القواعد الكلية في كتابه الرسالة، والتي تعد أساس النظرية البيانية. هذا الكتاب الذي أنتجته أنساق مختلفة؛ علمية وفكرية وحتى سياسية واجتماعية، فكان البيان عنده "اسم جامع لمعان مجتمعة الأصول، متشعبة الفروع. وأقل ما في تلك المعاني المجتمعة المتشعبة أنها بيان لمن خوطب بها. ممن نزل القرآن بلسانه. متقاربة الاستواء عنده، وإن كان بعضها أشد تأكيد بيان من بعض. مختلفة عند من يجهل لسان العرب"⁹.

كان البيان قبل الشافعي يعني الوضوح، فالبيان لغة "ما بُيِّنَ به الشيء من الدلالة وغيرها، وأن الشيء إذا اتضح فهو بَيِّنٌ"¹⁰. أما مفهومه عنده فهو اصطلاح، فلم يعد البيان يعني الوضوح والإفصاح فقط؛ بل أصبح اسما جامعاً؛ أي مفهوما مجردا يتمتع بقوة المفهوم يحوي عالما من الأوامر والنواهي؛ أي أفكار علمية ممنهجة¹¹.

لقد عمد الشافعي إلى تقسيم البيان إلى درجات خمس:

أولاً: بيان لا يحتاج إلى بيان

ثانياً: بيان في بعضه إجمال

ثالثا: بيان ورد له في صورة مجمل

رابعا: بيان السنة

خامسا: بيان الاجتهاد

واستخلص بعد ذلك من هذه الدرجات. ثلاثة أصول تتمثل في: الكتاب، والسنة، والقياس، ثم أضاف الإجماع كأصل رابع.¹²

وهكذا كانت نظرية الشافعي التي أسسها على جملة من القواعد لتفسير الخطاب القرآني التي تبناها علماء النحو والبلاغة، وحتى المتكلمين بعد أن عمموها، وأصبحت قوانين عامة لتفسير البيان العربي ككل، حيث أن "القواعد التي وضعها صاحب الرسالة. تظل مع ذلك بمثابة الأساس والهيكل العام لهذا العلم المنهجي. إن القواعد التي وضعها الشافعي لا تقل أهمية بالنسبة لتكوين العقل العربي الإسلامي. عن قواعد المنهج التي وضعها ديكرت بالنسبة لتكوين الفكر الفرنسي خاصة، والعقلانية الأوروبية الحديثة عامة"¹³.

لقد أراد الشافعي من البيان الكيفية والطريقة التي يتم بها استنباط الحكم الشرعي من القرآن الكريم والسنة النبوية، فالمعنى هنا لا يكون على درجة متساوية عنده. بل هو مراتب غير متساوية وبعضها أبين من بعض، وبعضها لا يتأتى بالفكر والتفكير، وبعضها لا يحتاج إلى ذلك، وفي رسالته قسم البيان إلى خمسة أصناف:

أ-الزيادة في المعنى

ب- البيان للخبر واحتمال ما أكثر منه

ت- اختلاف السنن واتفاقها

ث- الفرائض المنصوصة من كتاب الله

ج- القياس.¹⁴

النظرية البيانية عند الشافعي ذات صلة بالقرآن الكريم، وذلك من خلال الآيات والصور التي جاء فيها كل البيان، واستنبط منها كل الأحكام، والملاحظ أن الأصل في هذا التحليل الذي وضعه الشافعي مرده إلى أصليين أساسيين؛ أولهما النص الذي يضم فرعي القرآن والسنة، وثانيهما الاجتهاد؛ فالأول بيان بنص ظاهر قطعي الدلالة، والثاني بيان يحتاج إلى بيان أول لوروده¹⁵.

3.2.2. صلة علم الأصول بعلم البيان العربي:

أثبتت رسالة الشافعي أن العلمين في غاية التداخل، فالخير والإنشاء عموماً من علم المعاني وهما موضوع غالب الأصول. وكلما يتكلم فيه الأصولي من كون الأمر للوجوب، والنهي للتحريم، ومسائل الإخبار والعموم والخصوص والإطلاق... كلها ترجع إلى علم موضوع علم المعاني، وما ينفرد به أصول الفقه هو كلام الشارع عن غيره. إلا الحكم الشرعي والقياس.¹⁶ وتمحور بحث الأصوليين في البلاغة؛ لأن غرضهم هو التوصل بالدراسات البلاغية والنحوية إلى المعنى والكشف عنه. دون التعرض لجمالية النص. هاته الجمالية التي اتخذوا منها قرائن تفيد في حكمهم النهائي على المسائل الفقهية¹⁷.

ويرى الجابري أن الأبحاث البيانية انقسمت منذ قيامها إلى قسمين؛ قسم يُعنى بقوانين تفسير الخطاب، وقسم يُعنى بشروط إنتاج الخطاب¹⁸.

القسم الأول هو الذي تطرقنا له في جزئية الشافعي، والقسم الثاني سنتعرف عليه مع نظرية البيان عند الجاحظ. وعليه يمكن القول أن علماء اللغة والنحو كشفوا عن الكثير من خصائص التعبير البياني في الكتاب المنزل. لكنهم لم يولوا أهمية إلى وضع قوانين أو نظام لتفسير هذا الخطاب القرآني إلى أن جاء الشافعي وقفز معه النظام المعرفي البياني قفزة نوعية؛ وذلك لمعرفته العميقة والدقيقة بالأساليب التعبيرية للغة القرآن الكريم. كما ساعده اطلاعه على مجادلات الفرق الكلامية التي أفرزها عصره. لاستخلاص واستنباط المضامين التشريعية من القرآن إلى جانب اهتمامه بالبيان والبلاغة.¹⁹

ولهذه الأسباب التي ذكرناها استحق الشافعي كما يقول الجابري أن يكون المشروع الأكبر للعقل العربي.

3.2. النظرية البيانية عند الجاحظ:

1.3.2. انطلاق الجاحظ من اجتهادات الأصوليين:

يُرجّح الكثير من الدارسين أن الجاحظ تأثر بعلماء الفقه والأصول، وهو يعاين مبحث البيان حيث أن تبلور مفهوم هذا الأخير عنده في البداية لم يخرج عن كونه مبحثاً أصولياً، فهو الدليل الذي يبين الحكم، وهذا الدليل هو النص اللغوي القرآني، وكان هذا هو المسار الطبيعي في ضوء ما وصف به الله عز وجل كتابه العزيز بأنه ﴿هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ﴾. [آل عمران. 138]. وأنه جاء ﴿تَبَيَّنَّا لَكُلِّ شَيْءٍ﴾. [سورة النحل. 89]

وبعدها أخذ المصطلح طريقه إلى التطور والاتساع. ليشمل الأفعال والإشارات الذي عدهم الجاحظ من طرق البيان²⁰.

وتأثر الجاحظ بالنص القرآني باعتباره الدليل والمسلك للتعرف على المعاني كان واضحاً. حيث انتبه للأصول وهو يحاول وضع القوانين (الأصول) وتأثر في الوقت نفسه بالمفهوم الكلامي الذي يجعل من الكون الدليل على وحدانية الله ووجوده، وقدرته. وهي دلالة الأثر على المؤثر²¹.

فكما أثار علماء النحو واللغة والكلام في بيان الشافعي، كذلك أثار الأصوليون والمتكلمون في بيان الجاحظ. ليتأكد لنا مرة أخرى ان الحقل المعرفي، أو النسق البياني العربي أنتجته علوم عربية عدة.

وهذه نقطة الاختلاف بين وسائل البيان عند الجاحظ، ووسائله عند المتأخرين. النظرية البيانية عنده لم تقتصر على اللغة المنطوقة، ولا المكتوبة فحسب. بل تعدتها إلى الإشارة والعقد، وهذا ما يدخل ضمن كلام المتكلمين عن البيان. وأن منهم ما يكون للكلام والفعل والإشارة والرمز²².

إن العقلية العربية طالما وجدت إشباعاً في تداخل حقولها المعرفية. لأنساقها المختلفة، فالنقد العربي القديم لم يُفهم إلا ضمن دراسات ربما تختلف عنه. لكنها ألقت ضوءاً كبيراً عليه؛ مثل علم النحو والفقه. وحتى التفسير²³.

ومنه يمكن القول أن مباحث علم البيان، مباحث معرفية. لا تقتصر على المجال النقدي، وفهمها في النقد لا يتأتى إلا بفهمها في حقول مجاورة.

2.3.2. مفهوم البيان عند الجاحظ:

يُعرّف الجاحظ البيان بأنه "اسم جامع لكل شيء. كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير. حتى يصغي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليهما يجري القائل والسامع. إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"²⁴.

الجاحظ جعل من البيان وسيلة وليس غاية في حد ذاته. فهو طريقة للفهم والتعبير على اختلاف الكيفية التي يعبر بها الناس فيما بينهم. لإيصال المعنى بطرق ووسائل متعددة وعلى مراحل ومراتب، فالحاجة هي الداعي إلى البيان لذلك يعد الجاحظ من السابقين إلى ربط

ملكة البيان بالحاجة النفسية للمتكلم، وذلك بعد أن أدرك دلالة الألفاظ تقوم على المعنى الذي نحسه لا على النص المجرد.

والملاحظ أن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين. أولى الأهمية القصوى للفظ والمعنى؛ باعتبارهما أهم وسائل البيان عنده، فكانت دراسته علمية وانطباعية في الآن نفسه. ولم يلتفت للوسائل الأخرى كالكتابة والخط²⁵.

كما أنه اهتم بشروط القول، وما يتطلبه مهندسة بيانية وتصميم منطقي. لكنه مضمّر، وانطلق بذلك من الشروط التي وضعها للإرسال ووصولاً إلى ما يتطلبه الحصول على الاستجابة المرجوة²⁶.

وذكر الجاحظ لمسألة البيان لم تقتصر على كتاب البيان والتبيين فقط؛ بل اهتم بالأساليب البيانية في الخطاب القرآني وألف في ذلك كتابين هما: نظم القرآن، وكتاب: أي القرآن، وكتاب: الحيوان. الذي لا يكاد يخلو من بعض الإشارات البيانية.

3.3.2. وظيفة البيان عند الجاحظ:

لقد سيطر المعنى اللغوي للبيان على فكر الجاحظ. حيث أولى دلالة اللغة مكانة كبيرة. وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أنه يعتبرهما أكمل أنواع الدلالات ففيها تبلغ مقاصد وحاجة الناس، لذا كانت بمنزلة الضرورة، كما أنّ انتصاره للبيان اللغوي جعله يصرف جهدا كبيرا في المقابلة بين النطق والصوت في مواضع متفرقة من كتبه. كما بذل جهدا في الاحتجاج لفضل الأول على الثاني²⁷.

البيان عند الجاحظ لم يكن كلمة مفردة منفردة. بل منظومة معرفية ونسق فكري لم يجر معناه عنده على نسق واحد، فربطه بالعلامة اللغوية بوصفها الأداة المكتملة المتطورة. التي تمكّن مستخدميها من التعبير عن حاجاتهم. وما تختلج به نفوسهم كما يدل في بعض السياقات على كل وسائل التعبير الممكنة بين البشر والكيفية التي يتوصلون بها إلى المعنى. وهذا معنى عام. لا يشمل اللغة وحدها بل يتعداها إلى المجال العلاماتي. وهو العلم الذي أصبح اليوم علما قائما بذاته. ألا وهو علم العلامات.

وهكذا تدرج مفهوم البيان في نسق فكري. من العلامة اللغوية سواء بمستواها العادي أو البلاغي. إلى العلامة والإشارة²⁸.

وهذا ما يميز النظرية البيانية لدى الجاحظ من تكامل وتداخل بين الأنساق المعرفية. وما يربطها من علاقات؛ وهذا الفعل اللغوي عند الجاحظ لا يقوم إلا على مجموعة من

العناصر، التي جعلها ثلاثاً، وهي: المتكلم والسامع والكلام. وهي تمثل مجتمعة الحد الأدنى للبيان اللغوي، وتفظنه إلى هذا، أمر ذو بال حتى وإن كان رأي بعض الدارسين تأثر بالمنطق الأرسطي. فهذا لا ينقص من قيمة ما أتى به في ثنايا آثاره. وما تنبه إليه الجاحظ أثبتته النظريات الحديثة؛ كنظرية التواصل عند جاكبسون كما أنه اهتم في وقت مبكر إلى ما يحف بظاهرة الكلام من ملابسات. ويعده حمادي صمود بُعداً معرفياً يبلور لمن يقف على تراث الجاحظ نظرية متكاملة تجعل من الكلام المظهر الفعلي العملي للغة المجردة.²⁹

وتتوالد الوظائف وتتناسل في فكر الجاحظ في نسق متكامل. فليس من الصعب إثبات أن وظيفة الفهم والإفهام أو البيان والتبيين هي الوظيفة المسيطرة على تفكيره البياني. لذلك رادف بين المفهومين في أشد كتبه ذات الصلة بالمباحث اللغوية والبيانية. والبيان في مفهومه العام يقتصر على أداء الوظيفة وقضاء الحاجة وتحقيق التواصل لا يتم إلا من وجهة الإفهام والتفهم. وهذا المعنى كان بينا في قول الجاحظ: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير. حتى يفضي السامع إلى حقيقته"³⁰، فوظيفة اللغة الأساسية عنده والقارة هي الفهم والإفهام، فهي المدخل والطريق للوظائف الأخرى التي لا تعدو أن تكون نسقا متطورا للوظيفة الأولى. التي تؤدي شروط الفصاحة وقواعد الإبانة.³¹ كما أن إشارة الجاحظ لكلمة البيان في عنوان كتابه دلالة على تلك النصوص الإبداعية، وإلى النظر التأويلي الناقد لتلك النصوص، فجاء الكتاب جامعاً بين النص (البيان) ونقده (التبيين) ورأس العمل النقدي تبين النص وتفسيره ومقارنته، وهذا لإضاءة مكان النص والاستعانة بالسياق الخارجي الذي أولى له أهمية قصوى للوصول إلى النسق المعرفي الذي بنى عليه نظريته البيانية.

ولم يقف الجاحظ عند وظيفة الإفهام، "لكنه تدرج في كتابه البيان والتبيين إلى التأثير والإقناع حسب المقامات"³²، ولهذا كان تقديم صحيفة بشر بن المعتمر حدثاً رمزياً حدد استراتيجية الكتاب كما حددها تعريف البيان ومقايضته البلاغة ثم مقايضة البلاغة بالخطابة، وجعل بلاغة الخطابة في مراعاة المقامات وأحوال المخاطبين، المشكل يكمن في أن كتاب البيان والتبيين لم يُطوّر كمشروع بل أخذ كقطع غيار وأفكار منفصلة عن بعضها ولم يُلتفت إلى نسقه إلا في إطار نظرية المعرفة في قراءة ابن وهب في كتابه "البرهان في وجود البيان"³³، ولو اهتم الدارسون حديثاً لهذا الشتات المأثور عن الجاحظ لكانت هناك نظرية

بيانية وبلاغية مكتملة الأركان تشهد على فُرادة فكر هذا الرجل وتمكّنه فكل ما كان مبثوثا في كتاباته جاء بطريقة أو أخرى في الدراسات اللسانية والتداولية وحتى الحجاجية الحديثة.

4.3.2 استراتيجية البيان عند الجاحظ:

يذهب محمد العمري، إلى أن كتاب البيان والتبيين لم يخرج عن ثلاثة محاور وكلها متعلقة بدراسته للبيان وهي:

1- وظيفة البيان وقيّمته وذلك من خلال تعريفه للفهم والإفهام وقيمة البيان وذلك في إظهاره لمساوئ العي حتى قبل أن يعرف البيان ودفاعه عن الخطابة.

2- العملية البيانية وأدواتها وحديثه عن اللغة [النص + المشافهة] والإشارة والنسبة والخط والعقد.

3- البيان العربي وذلك من خلال دفاعه عن البيان العربي وتبرئته من تهم المزمّتين ومواجهة قبح الشعوبية وتأريخه للبيان العربي من خلال سرده لأخبار الخطباء.³⁴

ومن خلال تحليله لاستراتيجية كتاب "البيان والتبيين" يقول محمد العمري "أنّ الكتاب محاولة لوضع نظرية بلاغة الإقناع مركزها الخطاب اللغوي الشفوي وهامشها كل الوسائل الشفوية والرمزية وأساس الإقناع الخطابي مراعاة أحوال المخاطبين".³⁵

البيان حسب العمري عند الجاحظ هو بلاغة إقناع ركيّزتها الأساسية هو الجانب الشفوي الذي تدعمه جوانب مساندة كالإشارة والرمز وهذا ما أملتته ظروف تاريخية وسياسية، فعصر الجاحظ عصر الصراع المذهبي والفكري إلى جانب أسلوب الاستطراد الذي ميز كتاباته في تلك الفترة، فالمعرفة المتاحة في عصره شعرية، ثم خطابية برغم أن العصر الأموي كان العصر الذهبي للخطابة العربية إلا أنها ظلت قمرا دائرا في فلك الشعر.³⁶ ورغم أن مفهوم البيان عند الجاحظ كان مفهوما جامعا، بدأ مشروعه في إقامة نظرية بيانية يتراجع في صفحات كتابه فقايض البيان بالبلاغة ثم قايضها هي الأخرى بالخطابة وبالتالي خنقت البلاغة مشروعه البياني باعتباره نظرية للمعرفة، فلم يبق منه غير الخطة الأولى.³⁷

وبهذا الكلام الذي يقول به العمري هنا وكأنه يناقض أو ينفي ما قاله قبل هذا والذي ذكرناه هنا بأن استراتيجية الجاحظ في كتابه هي محاولة لوضع نظرية متكاملة في بلاغة الإقناع والتي كان منطلقها من دراسته للبيان من خلال المحاولة الكبرى التي قام عليها وذكرها العمري بالتفصيل.

5.3.2 سيمياء الجاحظ قراءة نسقية لبيانه:

بنى الجاحظ مفهومه للبيان كما أسلفنا الذكر منطلقاً من خلفية فلسفية عقائدية فكان مبتدأ تفكيره في القضية يتأسس على نظرة دينية رمزية فارتبط بغاية التعبير عن خفايا الحاجات والمعاني وهتك الحجاب وتأويل الرّمز وكانت المخلوقات بمنزلة الدال للمدلول وهو حكمة العالم والكون.³⁸

وإذا أردنا أن نرصد القراءة النسقية لبيان الجاحظ علينا أن ندرك مقصده فالبیان بمفهومه لا يتم إلا "بين الأجناس المتشابهة بعلامات يفهمون بها بعضهم عن بعض ويرفعون بها عنهم مؤونة الجهد في استكناه المعاني الكامنة التي تبقى ما لم تحط بها العلامة، مستعصية لا تتيسر إلا بخالص الجهد والمشقة".³⁹

وهذه دعوة صارخة من الجاحظ لاعتبار البيان مبحثاً في المعرفة وتحصيله لا يتم إلا بالوصول إلى الغاية ذاتها من البيان وهي الإفهام والإبلاغ، والأساس الذي بنى عليه الجاحظ فكره في تصوره للعلامة كان أساس ديني عقدي مبني على معرفة العالم الذي خلقه الله عز وجل، وهذا لا يتأتى إلا باستعمال العقل.

كانت رؤية الجاحظ للكون رؤية بيانية فالتبيعة والإنسان والحيوان، وكل هاته المخلوقات الإلهية يربطها عامل واحد وهو الإشارة التي تعبر بها عن نفسها، وبهذا جعل الإشارة لغة موازية للغة الكلمة غير أنّ لها نظامها الخاص المتواضع عليه اجتماعياً، وبالتالي هي لغة قائمة بذاتها مستقلة تمام الاستقلال عن اللغة الطبيعية، كما يسميها علماء اللغة المعاصرون.⁴⁰

والملاحظ أن الجاحظ في كتابه البيان والتبيين أولى الأهمية القصوى للفظ والمعنى باعتبارهما أهم وسائل البيان عنده، فكانت دراسته علمية وانطباعية في الآن نفسه ولم يلتفت للوسائل الأخرى كالكتابة والخط، ومنه فوسائل البيان عنده كلها مشبهة ببيان اللسان، فالكلام هو البيان الحقيقي ووسائل التواصل الأخرى ما هي إلا شبيهة به وتابعة له.⁴¹ ويصح القول أن الجاحظ أسس لسمياء خارجة عن حياة الأفراد والمجتمع وهي قريبة من سيمياء "بيرس" لأنها تحمل ذات الطابع الفلسفي التأملي، ومنه تكون بعيدة عن سيمياء "بارت" والتي أسسها دي سوسير.⁴²

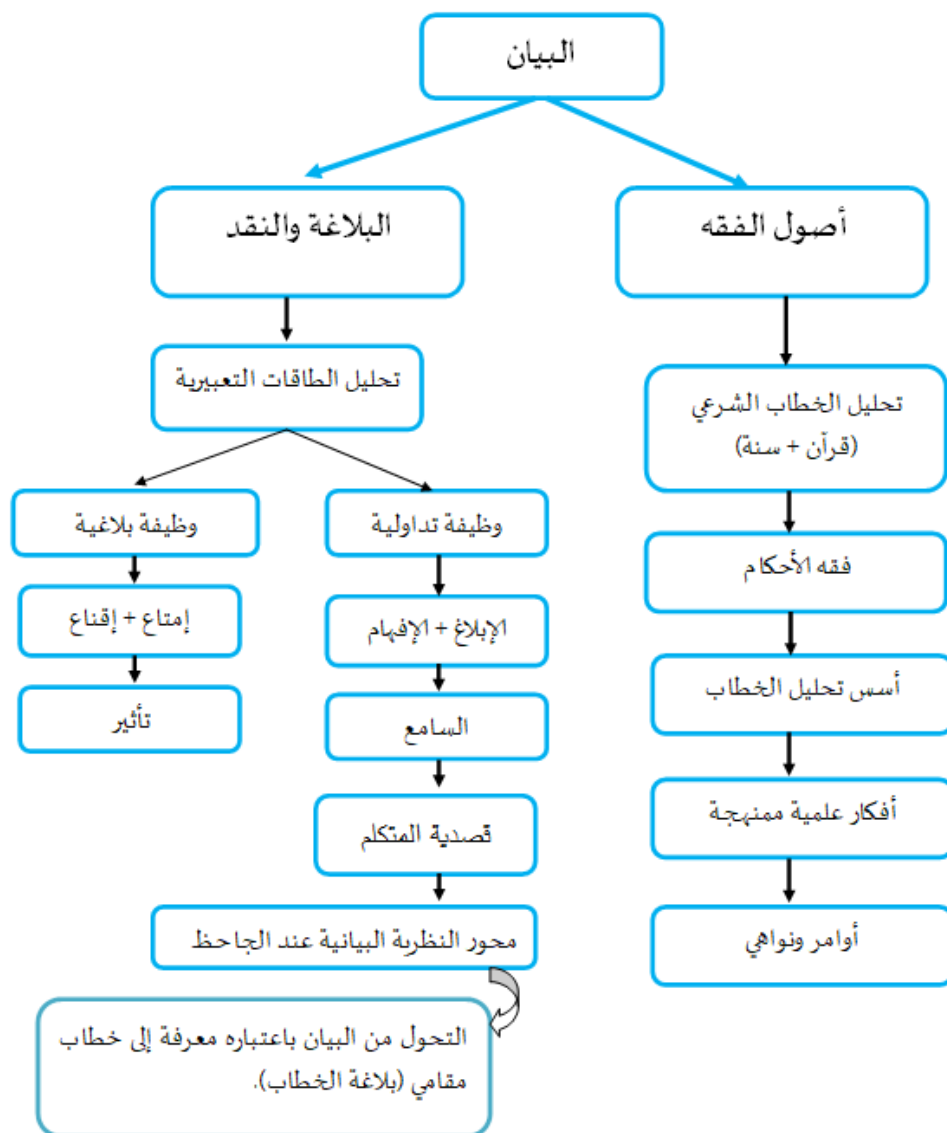
لكن علينا ونحن نحاول قراءة آثار الجاحظ أو غيره من البلاغيين والنقاد القدامى، أن تكون قراءتنا تطرح إشكالات معرفية والنظر إليها بمنظور أنها مشاريع بلاغية نقدية نسقية

تقرأ في نطاقها المعرفي العام، وباعتبارها مبحثاً في المعرفة وليس مجرد آثار أدبية تاريخية وذلك لإدراك أفقها المعرفي و"لا شك أن القارئ الحديث الذي يحاول أن يأخذ وجهة نظر منسجمة عن البلاغة العربية سيُصابُ بالدوار أمام الآراء المتضاربة التي صدرت في حق البلاغيين الكبار الذين ساهموا في عملية تشييد صرح البلاغة مثل الجاحظ (...) فأنت تجد الرأي وضده يُنسبُ للبلاغي الواحد، دون اهتمام بتفسير ذلك وترى الحكم يطلق إطلاقاً وهو عند صاحبه مقيد أو معدّل أو منسوخ أصلاً، وهذا ناتج كله في نظرنا إلى غياب القراءة النسقية المستندة إلى الأسئلة والخلفيات، والإخراجات التي حكمت أعمال هؤلاء الأعلام"⁴³.

لذا ينبغي أن نكون على وعي ونحن نتدارس أعمال هؤلاء ونرصّد التحول الذي حصل في الفكر العربي خاصة والإنساني عامة لمقاربة تلك الأعمال مقارنة منهجية وعلمية تتخذ من العلوم الدقيقة نموذجاً والتي صارت هي التي تقترب من العلوم الإنسانية، وحتى لا تفتح أبواب التأويل على مصراعيه بدون ضوابط ولا حدود، ذلك التأويل والقراءة الذي جعل من الجرجاني أبا للبنبوية ومن الجاحظ أبا للتداولية في الوقت نفسه، ولا يعني هذا نفي الرأي الذي يرى أن هؤلاء القدامى إسهام كبير في الفكر الإنساني⁴⁴.

وعليه علينا تغيير نظرنا للتراث وموقفنا منه باعتباره سلطة مرجعية والتعامل معه باعتباره منتجاً معرفياً يحتاج إلى وقفة معرفية.

الشكل: خلاصة تركيبية



4. خاتمة:

أسهمت النظرية البنيانية في بناء الخطاب العربي شكلا وضمونا وهو خطاب بلاغي في الوجهين الأصولي والبلاغي، كما أنه تلون بالسياق القرآني والسنة النبوية بداية مهتما بتحليل الخطاب الشرعي فوضع أسسا لتحليله وفق نسق فكري علمي ممنهج للوصول إلى كيفية استنباط الأحكام، وكانت النقلة الثانية مع الجاحظ، الذي اهتم بشروط إنتاج الخطاب،

بتحليل الطاقات التعبيرية متلونا بالسياق الاجتماعي والعائدي الديني، فكانت محور نظريته في البيان هو قصدية المتكلم وهي الإبلاغ والإفهام، في شقيها التداولي والبلاغي.

مراجع البحث وإحالاته:

- 1 - يُنظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط3، 2010م، ص:35
- 2 - يُنظر: محمد نايل أحمد، البلاغة بين عهدين في ظلال الذوق الأثري وتحت سلطان العلم النظري، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1994م، ص:40
- 3 - يُنظر: شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 1965م، ص:41
- 4 - محمد نايل أحمد، البلاغة بين عهدين، ص:40
- 5 - يُنظر: المرجع نفسه، ص:41
- 6 - يُنظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001م، ص:322
- 7 - يُنظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي نقد العقل العربي2، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط9، 2009م، ص:14
- 8 - يُنظر: محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، صص:102، 103
- 9 - محمد بن إدريس الإمام الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاکر البابي الحلبي، القاهرة، 1940م، ص:21
- 10 - ابن منظور، لسان العرب، مادة يَنْ، تح: عامر أحمد جهور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م، ص:475
- 11 - يُنظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص:22
- 12 - يُنظر: محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص:23
- 13 - محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص:100
- 14 - يُنظر: الشافعي، الرسالة، ص ص:21-25
- 15 - يُنظر: محمد عابد الجابري، المرجع السابق، ص:23
- 16 - يُنظر: السبكي بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح، تح: عبد الرحمان هنداي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003م، 53/1
- 17 - يُنظر: أسامة عبد العزيز جاب الله، مفهوم البيان والدلالة بين البلاغة وأصول الفقه مقارنة تحليلية. كلية الآداب، مصر، د.ت، ص:23
- 18 - يُنظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص:20
- 19 - يُنظر: محمد عابد الجابري، المرجع نفسه، ص:22

- 20 - يُنظر: عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، مكتبة الآداب. القاهرة، ط3، 2006م. ص: 97
- 21 - محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999م. ص: 195
- 22 - يُنظر: عبد الحكيم راضي، المرجع السابق، ص: 68
- 23 - يُنظر: مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس، بيروت، دت، ص: 08
- 24 - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الجانجي، القاهرة، ط7، 1998م، 76/1
- 25 - يُنظر: إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1984م، ص: 133
- 26 - يُنظر: محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي، ص: 26
- 27 - يُنظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 159
- 28 - يُنظر: حمادي صمود، المرجع نفسه، ص: 143
- 29 - يُنظر: المرجع نفسه، صص: 166-168
- 30 - أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين: 1/ 75
- 31 - يُنظر: المرجع نفسه، صص: 177-182
- 32 - حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص: 145
- 33 محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، ص: 33-34.
- 34 ينظر: محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999، ص: 193.
- 35 محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس، المغرب، العدد 05، خريف، شتاء 1991.
- 36 ينظر: محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص: 114.
- 37 ينظر، نفسه، ص 144.
- 38 ينظر: حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص ص: 143-145.
- 39 ينظر: المرجع نفسه، ص: 146.
- 40 ينظر: إدريس بلمليح، الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1984، ص ص: 120-125.
- 41 ينظر: المرجع نفسه، صص: 133-134.
- 42 ينظر: المرجع نفسه، ص 122.
- 43 محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، ص 127.
- 44 محمد العمري، المرجع نفسه، صص: 244-245.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم برواية ورش

- ✓ أبو عثمان عمر بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط7، 1998م.
- ✓ محمد بن إدريس الإمام الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاکر البابی الحلبي، القاهرة، 1940م.
- ✓ ابن منظور، لسان العرب، مادة بَيِّنَ، تح: عامر أحمد جهور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003م.
- ✓ إدريس بلمليح، الرؤية البينانية عند الجاحظ، دار الثقافة، المغرب، ط1، 1984م.
- ✓ أسامة عبد العزيز جاب لله، مفهوم البيان والدلالة بين البلاغة وأصول الفقه مقارنة تحليلية. كلية الآداب، مصر، د.ت.
- ✓ حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت، لبنان، ط3، 2010م.
- ✓ السبكي بهاء الدين أحمد بن علي، عروس الأفراح، تح: عبد الرحمان هنداي، المكتبة العصرية، بيروت، 2003م.
- ✓ شوقي ضيف، البلاغة تطور وتاريخ، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط9، 1965م.
- ✓ عبد الحكيم راضي، الأبعاد الكلامية والفلسفية في الفكر البلاغي والنقدي عند الجاحظ، مكتبة الآداب. القاهرة، ط3، 2006م.
- ✓ عبد العزيز حمودة، المرايا المقعرة، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 2001م.
- ✓ محمد العمري، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 1999م.
- ✓ محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، فاس، المغرب، العدد 05، خريف، شتاء 1991م.
- ✓ محمد العمري، أسئلة البلاغة في النظرية والتاريخ والقراءة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1.
- ✓ محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي نقد العقل العربي2، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، ط9، 2009م.
- ✓ محمد نايل أحمد، البلاغة بين عهدين في ظلال الذوق الأزلي وتحت سلطان العلم النظري، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1994م.
- ✓ مصطفى ناصف، نظرية المعنى في النقد العربي، دار الأندلس،